اهتمام الاستشراق الفرنسي برحلة الباي محمد الكبير إلى جنوب الغرب الجزائري.

د.بن عتو بلبروات
جامعة سيدي بلعباس

دونت رحلة الباي محمد الكبير[1] إلى جنوب الغرب الجزائري، في كتاب، بخط مغربي، أعده الباش دفتردار في بلاط الباي المذكور بمدينة معسكر أثناء فترة حكمه من 1779 إلى 1797 ، المسمى أحمد بن هطال التلمساني[2]. وتم تقييد أوراق الكتاب خلال فترة الرحلة الممتدة من يوم الخروج من معسكر يوم الخميس 09 ربيع الأول 1119هـ/ 19 يناير 1785م إلى يوم الرجوع يوم الأربعاء 28 ربيع الثاني 1119هـ/ 10 مارس 1785م.

أولا-مضمون الرحلة:

استهل الأديب والفقيه أحمد بن هطال التلمساني، رحلته بحمد الله، والصلاة والسلام على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه، وقد اختار تمهيدا عالج النقاط الآتية:

-في فضل علم التاريخ.

-غرض أحمد بن هطال من تقييد الرحلة، وقد أوجزه في رغبته لخدمة الباي محمد الكبير مبرزا في ذات الوقت خصاله وصفاته.

-موضوع الرحلة وزمانها.

-دوافع رحلة الباي محمد الكبير.

ثم شرع في تقييد مستجدات الرحلة من يوم الخروج إلى يوم العودة إلى معسكر، عاصمة بايليك الغرب وقتذاك، ويمكن لنا إعادة صياغتها بطريقة مبسطة ومسترسلة، وبمنهجية تعتمد التركيز على الحملة العسكرية التي قادها الباي محمد الكبير إلى جنوب الغرب الجزائري، فكان كالآتي:

ذكر أحمد بن هطال التلمساني أن الباي محمد بن عثمان قد رأى جهة القبلة (الجنوب) ذات بلدان كثيرة وأعراب راحلة ومقيمة، إلا أنها لم تنلها أيدي السلطنة، ولم يكن منها لملك مصلحة ولا منفعة معينة[3]. إلا أننا صادفنا أنه سبق لباي التيتري، ونعتقد أنه مصطفى الوزناجي[4]، قد غزا قبائل جنوب الهضاب العليا الخاضعة إداريا لبايليكه، لكنه رجع خائبا إذ توقف سيره عند بلدة " زنينة". فقد طرده أهلها وقتلوا له رجلين، فعزم الباي

محمد الكبير على مناجزة هذه القبائل المستقلة، ووعد الداي محمد عثمان باشا بمعاقبة المتمردين شريطة أن تخضع أراضيهم لحكمه مستقبلا لا لحكم باي التيتري[5].

لما نال موافقة الداي، جمع القبائل المخزنية، الموزعة إلى مخزن شرقي يضم المكاحلية، أولاد سيدي عربي، صبيح، أولاد العباس، وغيرهم، ومخزن غربي يضم الزمالة، الدواير، الغرابة والبرجية، وأردف إلى ذلك الطائفة الانكشارية، وخدامه المخازنية لتخليص الدفع المعلوم الذي يحدده للقبائل، والخدم والموالي، وكبراء ديوانه وفي مقدمتهم خليفته على الكرسي " محمد بن عبد الله" وخليفته على القطاع الشرقي للبايليك الغربي، ولده "عثمان"، وكاتبه الرئيسي " أحمد بن هطال التلمساني" الذي قيد هذه الغزوة.

أعتقد من خلال سيرة جنود الباي في هذه الغزوة، أنه أوصاهم بقتل من تعرض لهم بالسلاح، ونبههم إلى عدم التعرض للنساء، ولا يؤخذ شيء من لباسهن صونا لحرمتهن، وكذا الرفق بالشيوخ والصبيان، وترك الكهول والشبان والأعيان قيد الأسر حتى ينظر في أمرهم بمحلته، كما أعلمهم بأن الغنائم هي ملك لهم، حتى يحفزهم على إخضاع هذه القبائل المستقلة[6]. وقبل الانطلاق، يظهر أنه وضع خطة تحرك عسكري تقوم على أن يفترق الجيش عند موضع يسمى " دير الكاف"، فيقعد قسم بالموضع بقيادة ولده عثمان، ويواصل قسم بقيادة الباي محمد الكبير، السير نحو الهدف، على أن يلتقيا عند موضع يسمة " الخير". والغرض من هذا التكتيك العسكري، حماية ظهر كتائب الباي الذي كان يقدم أمامه طلائع استكشافية قبل الإغارة على موضع ما. وما يلاحظ في مسيرة هذه الغزوة أن هناك صنفين من القبائل:

صنف أول، أعلن طاعته لحكم الباي دون حصار أو قتال، قدم الفيء الذي يؤخذ بالاتفاق[7]. ويمثل هذا الصنف، أهل أنقاد (أنجاد) الذين أمدوا الباي محمد الكبير بالشعير لعلف الدواب، وبالإبل لحمل الزاد والعلف، ففرقها على المخزن والانكشاريين بقيمة يومه[8]، ويندرج أيضا ضمن هذا الصنف قبائل الأحرار الغرابة الذين قدموا له خيلهم وخمسمائة جمل قوية على الحمل مقابل الأمان. وأخيرا قبيلتا تاجموت (تاج الموت)، وعين ماضي[9]، حيث استقبلته هاتان القبيلتان عند نزوله بالدبداب، إثر سماعها بإغارة خليفته محمد بن عبد الله، على بلدة " زنينة"، ودفعت له حينا الدراهم والصياغة والثياب والخيل، وتعهدت له كلا القبيلتين بدفع اللزمة سنويا[10].

أثناء عودة الباي محمد الكبير من غزوته للأغواط، استقبله أهل تاجموت، ودفعوا له ثلاثين حملا من العلف، ولما نزل بموضع يقال له " أمسناج" أو " أمداج"، بين تاجموت وعين ماضي، وقع البيع والشراء بين

التاجموتيين وجنود الباي، فقد اشترى أهل تاجموت من المخزن، الغنم بقيمة ريال بوجو واحد لكل ثمانية رؤوس غنم، والبقر، كل أربعة رؤوس بريال بوجو واحد، ومع ذلك لم يدفعوا له دينارا ولا درهما، وإنما دفعوا لهم البرانيس لاتقاء البرد، والحياك[11]. وبقصر أوفل (آفلو) قدم على الباي محمد الكبير، أولاد صالح وأولاد يعقوب الساكنون ناحية الجنوب، وأولاد يعقوب الغرابة أي الساكنون نحو الغرب، وغيرهم، طالبين الأمان، فجعل على كل قبيلة لزمة[12] معلومة من الإبل والخيل، وأمنهم وكساهم[13].

وبموضع "الخير" ذو المياه الوفيرة والمزارع الواسعة، قدم أيضا على الباي محمد الكبير أعيان قبائل الأحرار الشراقة (أي المستقرون ناحية الشرق) بالإبل والخيل التي اشترطها عليهم، فعفا عنهم، وما عجزوا عن دفعه، عوضوه، بعد موافقة الباي، بالدراهم أو العبيد على أساس أن كل عبد يعادل ثلاثة جمال، وبالتالي تسنى للباي محمد الكبير، تعويض ما فقده جيشه من إبل بفعل البرودة الشديدة والثلج علما أن الغزوة تمت في فصل الشتاء من يناير إلى مارس 1785م[14]. أما الصنف الثاني، فيشتمل على القبائل التي خضعت لحكم الباي محمد الكبير بعد حصار، أو إغارة أو كلاهما معا، وقد تؤخذ منها الغنيمة التي لا تؤخذ إلا بقتال، ونذكر ذلك كما يلي: *الإغارة على قبيلة "جبل خنيق الملح": تسكن أكثرية هذه القبيلة بالجبل وقلتها في واديه، ومن خلال ما ذكره ابن هطال التلمساني، نلاحظ أن الباي محمدا الكبير، كان على دراية مسبقة بتوزيع أفراد هذه القبيلة العاصية، لأنه وبخ، وزجر طلائعه الاستكشافية عندما أغفلوا التمركز السكاني بالجبل.

لقد تفرق الجنود على الوادي والجبل معا، وأغار الباي محمدا الكبير على المستقرين بالجبل الذين لاذوا بالفرار تاركين أرزاقهم وذريتهم وعيالهم، أما الذين بالوادي، فقد حوصروا حتى غنمت خيامهم وأمتعتهم وإبلهم المقدرة بألف جمل وما يفوق أربعة آلاف شاة حسب ابن هطال[15].

*الإغارة على بلدتي "الخضراء" و "تاويلة (تاولالة)": تشتهر هاتان البلدتان ببساتينهما الكثيرة، ومائها الغزير ومزارعها الواسعة، ولما سمع أهلها بقدوم جيش الباي، تفرقوا في الجبال وبطون الأودية، وتركوا أرزاقهم، فكانت غنائم انتفع منها الجيش.

*الإغارة على بلدة "تادمامة" و قصر "أوفل": غنم جيش الباي محمد الكبير حبوب وخيل وإبل هذين الموضعين بعد أن وجد أهلها قد لاذوا بالفرار إثر سماعهم بتأهب لغزوهم.

*الإغارة على أعراب "القعدة": تتميز القعدة بصعوبة تضاريسها، حاصرها الباي محمدا الكبير بفرسانه ومشاته من كل جهة، وصار أهلها في خناق شديد، يتخيرون القتل أو الأسر، وقد غنم الجنود الخيام والأنعام، وتحرك أعيان القعدة لمصالحة الباي محمد الكبير على إعطائه أربعمائة رأس من البقر ومائة حمل من الشعير، وعدد من الخيول.

*الإغارة على بلدة "زنينة": كان الباي محمدا الكبير يترقب أخبار هذه البلدة من موضع مجاور يسمى "الدبداب" لأن سكانها أعراب ذوو عزة نفس وعدة، سبق لهم أن طردوا باي التيتري عند نزوله عليهم وقتلوا له رجلين فكلف خليفته محمد بن عبد الله بغزوهم، لكنه وجدهم قد فروا تاركين أمتعتهم وقوتهم م قمح وشعير وسمن وغيره، التي غنمها الجنود خاصة الشعير من أجل تقديمها علفا لدوابهم[16].

*الإغارة على "عين ماضي": مر الباي محمدا الكبير بعين ماضي أثناء سيره إلى بني الأغواط، فقدم له أهلها الطاعة مقابل الأمان، ثم بلغه بعد ذلك أنهم نقضوا الطاعة، فغزاهم، فقاتلوه قتالا شديدا حتى نفذ الرصاص ووقع جيش الباي في ضائقة حربية حتى أتته النجدة من مدينة الجزائر، وكانت عبارة عن قافلة من البغال، تحمل صناديق من الرصاص، ففرقه على جنده، وعند غروب الشمس، سيطر الباي محمد الكبير على عين ماضي وأخضعهم لحكمه والتزموا له بمال يؤدونه له كل سنة[17].

وبعد رجوع الباي من الأغواط، خفف عليهم اللزمة لعجزهم عن إيفائها، وتكرم على كل امرأة بسوار فضة، ثم أصبحت عين ماضي محل نزول محلة عثمان[18] بن الباي محمد الكبير سنة 1787م[19].

*الإغارة على "الأغواط": سارت الأغواط من مصالحة الباي محمد الكبير إلى محاربته فجأة شأنها شأن عين ماضي، ففي البداية قدم مشائخها وعلمائها على الباي عند نزوله "بأم الضلوع" حاملين صحيح البخاري طالبين منه الأمان مقابل إعطائه مائة خادم وخمسة آلاف سلطاني ومائة ثوب وأربعة أفراس من عتاق الخيل، فأمنهم وكساهم.

ولما انصرفوا، تذكر الباي محمد الكبير أمر اللزمة التي لم يحددها لهم، فبعث وفدا مخزنيا، أبلغهم أن الباي يشترط عليهم تعهدا بدفع اللزمة في كل سنة، فرفض بنو الأغواط ذلك وهددوا الوفد المخزني وعجلوه بالانصراف. اشتغل الأغواطيون بتحصين مدينتهم، وتعبئة الأعراب المجاورين لهم، الذين استجابوا لذلك، وقام الأعيان بتوزيع المقاتلين، فعينوا الرماة في الأبراج العالية، وأغلقوا أبواب المدينة بالحجارة، وجددوا بناء المواضع المرممة وحصنوها حتى يستعصي على الباي اختراقها[20].

وبعد أن تبين للباي محمد الكبير عصيان بني الأغواط، تحرك إليهم بجيشه وعاين المدينة من الجبل الذي يحيط بها غربا وشرقا، فلاحظ أن المدينة محصنة ومحاطة ببساتين وأبراج، وأسوارها متخالفة وبعضها خلف بعض، فجس نبضها بقصفها من الجبل بأربعة مدافع ثم وضع خطته العسكرية كالآتي:

-كلف الخدم والموالي الذين اصطحبهم معه بتهديم حيطان المدينة بالفؤوس، حائطا بعد حائط ليتمكن الجنود من التسلل إلى المدينة.

-عين الجنود الانكشاريين بالجبل، وعين المخزن الغربي بوادي الجبل في جنوب المدينة.

-نصب المدافع في الجهة الغربية للمدينة مقابل بابها.

-عين مخزن الشرق في الجهة الشمالية للمدينة.

-عين مخزن الدواير في شرق المدينة ليكونوا عندئذ على يسار المدافع.

وبهذه الكيفية، تم تطويق المدينة من الجبل والوادي، ومن الجهات الأربع، وشرع الموالي والخدم في عملهم وتمكنوا من تهديم ما يزيد عن خمسين حائطا، ووقع الهجوم على المدينة ليأمر الباي بالرجوع حذرا من الوقوع في فخ الأغواطيين واعتبارا لجهل جيشه بفلوات وخبايا المدينة(21).

لقد توقف القتال بأمر من الباي محمد الكبير، وكتب أحمد بن هطال التلمساني أن الأغواطيين وحلفاءهم، خسروا ما يزيد عن ستين رجلا بين قتيل وجريح، وأحد عشر أسيرا، لكنه لم يذكر خسائر جيش الباي. وما خيب آمال الأغواطيين في مواصلة التصدي للباي، تفرق الأعراب الحلفاء ورجع كل عرش إلى أرضه ليلا. وبالتالي نلاحظ أن جيش الباي محمد الكبير لم يضبط حركة الانصراف والانسحاب من مدينة الأغواط ما يدل على خبرة الأعراب بخبايا الأرض وجهل الباي لها، أو أنه تعمد تركهم ينسحبون حتى تضعف مقاومة الأغواطيين.

وبلغ حلم الباي محمد الكبير في هذه الغزوة أنه أراد مقاتلة الأغواطيين مجددا بعد إخراج العلماء منها، مما يفسر تقديره لحملة العلم، لكن بعد وساطة الخليفة محمد بن عبد الله لدى الباي، عفا هذا الأخير عن الأغواطيين ودخل عليه العلماء الأغواطيون طالبين منه أن يكتب لهم الأمان، ويجدد لهم اللزمة السنوية، فاكتفى الباي بتجديد ما طلبوه شفاهيا، وعين ممثلين منهم، يقومان بتخليص دفع اللزمة وهما: أحمد بن لخضر ممثل عرش سرغيت، والسايح بن زنون ممثل عرش الحلاف علما أن كلا العرشين، يشكلان المجتمع الأغواطي. لقد تمكن الأغواطيون من دفع الخيل

والفضة والدراهم، وقدموا عشرين خادما ثم تقدم ستة من كبرائهم بأبنائهم كرهائن للباي محمد الكبير ريثما يتموا ما بقي من نصيب اللزمة. وفعلا، وصلته اللزمة الباقية إثر نزوله بعين ماضي على دفعتين:

قدمت له في الدفعة الأولى خمسة آلاف ريال بوجو، وأربعون خادما. وفي الدفعة الثانية، ستون خادما ومائتا وخمسون جملا، وما تبقى من نصيب اللزمة، وعدوه بإيصالها إلى مقر حكمه بمعسكر مع إرجاع الخيول الأربعة التي سرقها أولاد المخاليف لجنوده، وافتداء رجالهم الأسرى وعددهم أحد عشر أسيرا[22]. اختتم أحمد بن هطال الرحلة بذكر عودة جيش الباي محمد الكبير إلى معسكر ثم أكد أن ما ورد في الرحلة هو من تأليف أحمد بن محمد – بفتح الميم– بن علي بن أحمد بن هطال، قولا وكتابة، وأخيرا دعا الله وصلى على محمد عليه الصلاة والسلام.

ثانيا-المدرسة الاستشراقية الفرنسية واهتمامها برحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الجزائري:

1 -تأسيس المدرسة الاستشراقية بالجزائر المحتلة:

أيقنت الإدارة الاستعمارية الفرنسية أن فكرة " الجزائر فرنسية" لا يمكن لها أن تتحقق إلا إذا تم اكتشاف خصوصيات البلاد وكشف النقاب عن تاريخها المظلم، حتى يتسنى للقيادة السياسية والعسكرية الفرنسية، تخطيط مشاريعها الاستعمارية بكل إتقان والتمكن من احتواء سكان الجزائر المسلمين ومن ثمة تمييع كل محاولة جزائرية، تسعى إلى الحرية مثلما جرى مع الأمير عبد القادر في الغرب وأحمد باي في الشرق وابن زعمون وابن المبارك وابن سعدي في الوسط[23].

وبهذا الصدد شجعت الإدارة الاستعمارية أطرها وباحثيها بتنشيط الحركة الإعلامية في الجزائر، قصد تنوير المعمرين الأوربيين بقضايا الجزائر التاريخية وتوظيفها في حاضرهم ورسم مستقبلهم في الجزائر. ففي ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أنشأ المستشرقون الفرنسيون صحيفتين محليتين لنشر الأبحاث العلمية المنجزة بالجزائر هما: صحيفة الممرن الجزائري Le Moniteur Algérien سنة 1832م وصحيفة الأخبـــار El Akhbar سنة 1837. كانت جهود الباحثين الفرنسيين في هاتين الجريدتين، تذهب سدى من الوجهة الإعلامية لأن الصحيفتين لا تتوفران على فهرس للمحتوى مما جعل القارئ أو الباحث لا يعثر على مبتغاه بكل سهولة ولا يتعرف على كُتاب الصحيفتين الذين اعتبروا ذلك إجحافا بحقهم[24].

وفي عام 1835م ولدت مكتبة الجزائر لكنها لم تفتح أبوابها إلا في شهر يناير 1838م عندما ألحق بها متحف للآثار. ومنذ ذلك الحين، فُتح المجال أمام الباحثين الفرنسيين لخوض غمار الأبحاث الثقافية والفكرية حيث

صارت المكتبة، مركزا خاصا، يلتقي فيه المستشرقون لتبادل المعلومات والأفكار بخصوص تاريخ الجزائر المحلي عبر العصور، وسرعان ما أعقب ذلك تأسيس لمكتبات عسكرية في نقاط عدة بمدينة الجزائر العاصمة.

في عام 1839م استحدثت اللجنة العلمية لاكتشاف الجزائر، إلا أن مقاومة الأمير عبد القادر قد شوشت على أشغالها، لكن بمجيء الماريشال بيجو Le Maréchal Bugeaud، فتحت الآفاق أمام هذه اللجنة التي أنجزت بحوثا ، أعطت نفسا جديدا للبحث العلمي الاستشراقي بالجزائر. وفي عام 1841م تأسست جمعية القديس أوغسطين Saint Augustain واستمرت إلى غاية 1845م، وبعدها اهتمت السلطات الفرنسية الاستعمارية بالتنقيب عن آثار الأمم التي هيمنت على أرض الجزائر، ونقل اللقى الأثرية الرومانية إلى متحف الجزائر بباريس.

وفي 25 مارس 1844م توجه بيجو إلى الحكومة الفرنسية بضرورة إصدار مرسوم ينص على المحافظة على بقايا العصور القديمة وكذا النصب التاريخية. وفي السنة نفسها، صدر قرار حق الحكومة الفرنسية في ملكية القطع الأثرية المكتشفة. وفي سنة 1850م كلف ليون روني Léon Renier **برصد نقوش لمباز** Lambèse وما يجاورها، وتبين للمستشرقين أهمية أفكاره وأبحاثه في تاريخ الرومان بافريقيا الشمالية. ودرس أحد الباحثين المستشرقين الجريد التونسي والصحراء الجزائرية ونشرت الصحف بعض أعماله حول منطقة الجنوب.

ابتداء من سنة 1851م بدأت تختمر لدى الإدارة الاستعمارية فكرة الجمعية العلمية، حيث تم تأسيس الجمعية الجزائرية للفنون الجميلة بمدينة الجزائر والتي نظمت معرضين، الأول بالجنينة، والثاني بالثانوية، لكنها استمرت لسنة واحدة بفعل مصاعب داخل الجمعية. وفي مدينة قسنطينة، برزت الجمعية الأثرية سنة 1852م والتي أنجزت فهرسا مهما(25). في عام 1854م أمر الحاكم العام راندون Randon بتأسيس المفتشية العامة للمعالم التاريخية والمتاحف الأثرية في الجزائر، ولم تتوقف جهود راندون عند هذا الحد، بل أراد أن يعطي قوة ونوعية للدراسات التاريخية المحلية معتمدا على جهود الكفاءات الفرنسية الاستشراقية، فأسس لأجل ذلك جمعية مختصة بالعاصمة الجزائرية سميت بالجمعية التاريخية الجزائرية، وكان ذلك في عام 1856م.

اتخذت الجمعية التاريخية الجزائرية برئاسة أدريان بربروجر Adrien Berbrugger والتي مثلت بحق، رفقة الهيئات السابقة الذكر في التاريخ والآثار والفنون، الفكر الاستشراقي الفرنسي بالجزائر المحتلة، منبرا إعلاميا حمل اسم المجلة الافريقية La Revue Africaine أي المجلة المختصة بنشر الأبحاث والدراسات الأثرية والتاريخية الخاصة بشمال افريقيا، عبر المراحل التاريخية، والتي لم يسبق وأن نشرت أو إعادة طبع أو تقديم قراءة

تحليلية –حسب الحالة– للأعمال المهمة التي ظهرت في صحف المستعمرة أو في جرائد أوربا. وباختصار تنشر المجلة الافريقية كل ما كتب حول المنطقة بغية التأسيس للمكتبة التاريخية الافريقية. وحرص المستشرقون الفرنسيون على أن تكون المجلة الافريقية مجلة شعبية في الجزائر، تعتمد على كفاءات في أوربا، لامعة في علم التاريخ ومهتمة بماضي الجزائر وتجمع بين المثقف والمتنور في أوربا والجزائر لحل المعضلات التاريخية بشمال افريقيا[25].

2-اهتمام الاستشراق الفرنسي برحلة الباي:

جاء اهتمام الجمعية التاريخية الجزائرية ومجلتها الافريقية برحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري ضمن اهتمامها بدراسة الصحراء الجزائرية، كفضاء واسع، المتميز ببيئته الطبيعية القاسية، وقبائله العربية والأمازيغية المنغلقة على نفسها، وبنمط عيشها كقبائل مستقرة و/ أو راحلة. وما نلفت الانتباه إليه إلى أن المستشرقين الفرنسيين، قد استعصى عليهم في أوائل الاحتلال، الخوض في شؤون وخبايا الصحراء الجزائرية لأنه لم تتوفر لديهم بعد إمكانيات البحث العلمي، ولم تتعاط ظروف الجزائر مع العطاء الثقافي والفكري للمستشرقين الفرنسيين، فتساؤلات الغزو العسكري والاستيطان، كانت تستحوذ على عقول الفرنسيين عامة، وأيقنوا أن البحث العلمي واكتشاف الجزائر من الداخل، يتطلب امتلاك الأرض والبلاد وإرساء قواعد عسكرية ومراكز استيطانية[26].

لهذا جاءت الجمعية التاريخية الجزائرية التي حملت على عاتقها تحقيق ودراسة المصادر الأوربية والعربية الكاشفة لخصوصيات بيئة الجنوب الجزائري عقب نجاح الجيش الفرنسي في بسط سيطرته على هذا الفضاء الرحب لأنه لا يمكن البحث في البيئة الصحراوية وسكانها، وقد أضحت مدنها وقراها وواحاتها وكرا للمقاومين الجزائريين مثل مدينة الأغواط الحافلة بسجل صراع مسلح مع جيش الباي محمد الكبير في نهاية القرن الثامن عشر، والآن تجهز نفسها لمناجزة جيش راندون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بتأطير من الشيخ محمد بن عبد الله، من قبيلة أولاد سيدي الشيخ الذي مكث بالمشرق العربي ثلاث سنوات، وأقام بمكة، علاقات مع نخبة من العلماء المسلمين، ورحبت به السلطات التركية العثمانية وشجعته على مقاومة الاحتلال الفرنسي ابتغاء الحرية، فتوجه إلى طرابلس ومنها إلى غدامس وتوقرت واستقر بزاوية الرويسات المجاورة لورقلة، داعيا إلى الجهاد، كل قبائل الصحراء الشمالية وحالف بين قبائل الأربعاء واستطاع أن يفرض سلطته على الأغواط[27]. وهنا رأى راندون نفسه، خصما لهذا الشيخ الثائر بعد أن بلغت حركته توسعا مقلقا، فجهز ثلاث كتائب للغزو وهاجم الأغواط يوم 04 ديسمبر 1852م، وقتلت الفرق العسكرية الفرنسية كل المقاومين الذين صمدوا رغم فرار الشيخ محمد بن عبد الله إلى

ميزاب، وعمد العساكر الفرنسيون إلى حرق الجثث أو رميها في الآبار رفقة جثث الحمير والجمال والخيول. وبعد ثمانية أيام، تم إعدام الأسرى الجزائريين من طرف فرق الصبايحية، وأحدث الفرنسيون، كارثة إنسانية بالأغواط حيث بدأت النسور والغربان تجوب سماء المدينة الثائرة(28).

على هذا الأساس، أعتقد أن الجمعية التاريخية الجزائرية التي أسسها الماريشال راندون، سعت إلى تبرير ما حدث في الأغواط من مجازر على يد الجيش الفرنسي، بتكليف جورجيوس بترجمة رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الجزائري بقلم ابن هطال التلمساني مع التعليق، والملفت للانتباه أن حتى هيئة تحرير المجلة الافريقية، تدخلت بإضافة بعض التعاليق التي أغفلها جورجيوس Gorguos. كل ذلك بهدف إعلام رواد الحضارة والحرية أن ما فعله راندون الفرنسي المسيحي، من غزو لقبائل الصحراء والسيطرة على الأغواط سنة 1852م، وما نتج عنه من قتل وجرح وأسر، قد فعله قبله الباي محمد الكبير العثماني المسلم، لأن كلاهما واجها كرجال دولة، عصيانا وتمردا من لدن سكان الأغواط، مما يعني، لدى المستشرقين، أن القمع والفتك عمل مشروع من أجل أمن الدولة وحياتها.

وعليه ومن أجل بلوغ هذا الغرض، تمكن جورجيوس من تحقيق وترجمة كتاب أحمد بن هطال التلمساني عن اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية، ونشره بالمجلة الافريقية على الطريقة الآتية:

-عرف جورجيوس بالباي محمد الكبير وتطرق إلى خصاله وفضائله وإنجازاته في العددين الأولين الصادرين سنتي 1856 و1857، وجاءت فهرسة ذلك على النحو التالي:

-Notice sur le Bey d'Oran Mohammed El Kebir. Volume I, pp. 403-416. et 454-463.

- Notice sur le Bey d'Oran Mohammed El Kebir. et Volume II, pp. 223-241

-ترجمة الرحلة مع التعليق الهامشي ونشرها بالمجلة على النحو التالي:

- Expédition de Mohammed El Kebir, Bey de Mascara dans les contrées du sud, terminées par le siège d'el Ar'ouat (lagouat) et la soumission d'Ain Mad'i . Volume III, 1858, pp. 52-61, 185-192 et 286-295.
Volume IV, 1859, pp.347-357.

وفي الختام، نود التنبيه من خلال هذا الموضوع، إلى أحد أشكال التفكير لدى المستشرقين الفرنسيين أو مدارسهم التي ينتمون إليها، فنجدهم في هذا المقام يتعاملون مع مخطوط عربي يخلد غزوة عسكرية للباي محمد الكبير إلى جنوب الغرب الجزائري، فيترجمونه إلى لغتهم بكل أمانة ودقة، ثم ينشرونه ليطلع عليه الرأي العام الفرنسي

والأوربي والعالمي. وكل ذلك كان استجابة لمطالب سياسية وعسكرية تتعلق بالحاكم العام راندون ومجازره الجماعية في الأغواط ومحاولة تبريرها تاريخيا وتغطية جرائمه المصنفة كجرائم ضد الإنسانية والتخفي وراء النشاطات العسكرية للباي محمد الكبير كأمير مسلم كردي الأصل، عثماني الانتماء، وجزائري النشأة، تعلق به الكثير من الجزائريين. والسؤال المطروح : هل يمكن للرأي العام أن ينخدع بأطروحات المستشرقين الفرنسيين إذا تعرف على تفاصيل غزوتي الأغواط ونقصد بهما الغزوة العثمانية سنة 1785 والغزوة الفرنسية سنة 1853 ؟

الهوامش:

(1) الباي محمد الكبير: تولى حكم بايليك الغرب سنة 1779 وتوفي سنة 1797 بطريقة غامضة، لا تزال تطرح تساؤلات لدى المؤرخين، اشتهر بتحريره لوهران والمرسى الكبير من قبضة الاسبان سنة 1792، وكذا أعمال أخرى في المجالات: الاقتصادية والضرائبية والاجتماعية والثقافية.

(2) أحمد بن هطال التلمساني: هو أحد علماء الجزائر في أواخر العهد العثماني، شغل منصب رئيس الكتاب ببلاط الباي محمد الكبير، وكلف من قبل هذا الأخير بتقييد وقائع رحلته العسكرية إلى جنوب الغرب الجزائري، ومارس مهام دبلوماسية إلى المغرب الأقصى قصد جلب الذخيرة الحربية إلى الباي محمد الكبير في إطار مساعي تحرير وهران من الاسبان. وتوفي في معركة فرطاسة على يد الدرقاويين سنة 1803 في عهد الباي مصطفى.

(3) ابن هطال التلمساني، أحمد. **رحلة محمد الكبير، باي الغرب الجزائري، إلى جنوب الغرب الجزائري**. تحقيق : محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، 1969. ص ص.36-37.

(4) مصطفى الوزناجي: حكم هذا الباي اقليم التيتري بين 1774-1792 ثم أصدر الداي حسن أمرا بقتله فالتجأ إلى زاوية عبد الرحمن الثعالبي بفحص مدينة الجزائر إلى أن عفا عنه الداي المذكور بوساطة يهودية فتولى اقليم قسنطينة سنة 1793 ليقتل سنة 1798 بأمر من الداي حسن وبإيعاز من التجار الفرنسيين.

(5) Mangin, E. « Note sur l'histoire de Laghouat ». **In Revue Africaine**, 1892, p.385.

(6) ابن هطال التلمساني، أحمد. المصدر السابق، ص 47.

(7) الريس، محمد ضياء الدين. **الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية**. ط4، دار الأنصار، القاهرة، ص 110.

(8) ابن هطال التلمساني، أحمد. المصدر السابق، ص 37.

(9) تبعد عين ماضي عن الأغواط بحوالي 72 كلم ناحية الغرب، وعن تاجموت بـ28 كلم ناحية الغرب أيضا. يمكنك مطالعة:
Arnaud. « Siège d'Ain Madi ». **In Revue Africaine**, 1864.

(10) ابن هطال التلمساني، أحمد المصدر السابق، ص 52.

(11) المصدر نفسه، ص 70.

(12) اللزمة هي ضريبة سنوية فرضتها السلطة التركية العثمانية على القبائل شبه المستقلة في المناطق النائية والمناطق الجبلية وتدفع عينا ونقدا ومن خلالها كرست السلطة نفوذها على هذه القبائل الجزائرية سواء كانت عربية أو أمازيغية.

(13) ابن هطال التلمساني أحمد، ص 45.

(14) المصدر نفسه، ص ص 82-83.

(15) نفسه، ص ص 39-41.

(16) نفسه، ص ص 42-51.

(17) ابن سحنون الراشدي، أحمد بن علي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**. تحقيق وتقديم : المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي، قسنطينة، 1973. ص 138.

(18) عثمان بن محمد بن عثمان الكردي : خلف والده محمد الكبير على رأس بايليك الغرب الجزائري في نهاية 1797، بتزكية من الداي حسن باشا، وتحتاج مسيرته السياسية والعسكرية وسيرته الشخصية إلى دراسة لأنه اتهم في عهد الداي مصطفى باشا باللهو والمجون والتفريط في شؤون البايليك فعزله الداي المذكور ثم ولاه بايا على الشرق الجزائري إلى أن قتله الثائر ابن الأحرش الدرقاوي سنة 1803.

(19) ابن هطال التلمساني، أحمد، المصدر السابق، ص 73.

(20) نفسه، ص ص 54-55.

(21) نفسه، 56-59.

(22) نفسه، ص ص 60-67.

(23) صالح عوض، **معركة الإسلام والمسيحية في الجزائر**. الزيتونة للإعلام والنشر، تونس، الجزائر، (بدون تاريخ) الجزء الأول، ص 92.

(24) Adrien Berbrugger. « Introduction ». **In Revue Africaine**, Année 1856, p.05.

(25) Ibid, pp. 07-08.

(25) Ibid, p.11.

(26) Ibid, p.05.

(27) Charles André Julien. **Histoire de l'Algérie contemporaine –la conquête et les débuts de la colonisation 1827-1871**- Presse Universitaires de France, Paris, 1964, p.391.

(28) Ibid, pp.391-392.